النظام القيمي في الدين والمجتمع

عبد الرحمن السالمي

تشير الآيات القرآنية التي تشكّل شعاراً لمحور هذا العدد إلى أنّ القيم التي يحملها المؤمن، والأخلاق التي ينبغي أن يتّسم بها، تصبح مسؤوليةً ورسالةً وأمانة تقتضي الوفاء والصبر: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ولذا فالمؤمن حاملُ رسالة الدعوة إلى الله بالعمل الصالح؛ أي بأن يتخذ من نفسه نموذجاً، هو نموذج المسلم الحق. وهذا النموذج يجب عليه التحمُّل وينبغي أن يتحلى بالصبر؛ لأن طريقه كله مُعاناةٌ ومجاهدة؛ فالذين يصبرون ويجاهدون في سبيل الله والبشرية هم أصحاب الحظ العظيم، نتيجة الأمور الثلاثة

bookaltafahom 34.indb 7 1/3/12 8:31 AM

معاً: الإيمـــان، والعمل الصالح، والصبر على المـــكاره طلباً للأجر، واحتســـاباً عند اللّه. إنما ما هي هذه الدعـــوة التي يحملها المؤمن، وتُنتج العمل الصالح للبشـــرية، الذي يُصبحُ سمةً للمسلمين وشعاراً لهم؟ إنها قيم المساواة والرحمة والكرامة والعدل والتعارُف والخير العامّ، وهي جميعاً قيمُ قرآنية؛ بمعنى أنها وردت عشرات المرات؛ بل ورد بعضها مئات المرات في القرآن (مثل المساواة، والخير العام). وقد اســـتقرت هذه القيم وتغلغلت في نفـــوس المؤْمنين وتصرفاتهم عدة أجيالٍ، فكانت في أساس تبلْوُر أمة الإسلام والمسلمين. وتشير التجربة التاريخية للمســـلمين مع النصّ إلى أنّ كثيرين تساءلوا عن تخلُّـــف العمل الصالح عن الإيمان؛ وذلك مـــن خلال مبحث مرتكب الكبيرة. فالمؤمن الصادق لا يرتكب محرَّم كسفْك الدم أو استباحة الأعـــراض والأموال؛ بيد أن ذلـــك وقع في عصـــر الصحابة، وبعض الذين ارتكبوا ذلك كانوا معروفين بالإيمان العميق، وتقصُّد السلوك الطيّب، والعمـــل الخيّـــر؛ فكيف نفهـــمُ تخلُّف العمـــل الصالح عن الإيمان؟ وعلى ذلك أجابت السيدة عائشـــة أُمّ المؤمنين في حديثها عن أخلاق رســـول اللّه صلوات اللّه وســـلامُهُ عليه حيـــن قالت: كان خُلُقُهُ القـــرآن. أي أنه عليه الصلاةُ والســـلام اســـتظهر في تفكيره وتصرفاته القيم القرآنية السالفة الذكر، وهي لا تحولُ دون الخطأ الإنســـاني؛ لكنها تحول بالتأكيـــد دون ارتكاب المحـــرَّم الذي عدَّه القرآن حداً فاصلاً بين الإيمان والكفر. فقيمة المســـاواة تستقر في خَلَد المسلم بما ذكره القرآن من وحدةٍ في أصل الخلق، وأن البشر جميعاً كنفسٍ واحدةٍ أمام اللّه في القيمـــة والعمل والثواب والعقاب. وهكذا فإنّ اعتقاد التســـاوي يُذهب رذيلة الكِبْـــر، كما يُذهب رذيلة اعتقاد الأفضليـــة. وقيمة الكرامـــة تضعُ على عاتـــق المؤمن فضيلة

bookaltafahom 34.indb 8 1/3/12 8:31 AM

العهدين: عهد ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾، وعهد: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾؛ أي عهد الاعتراف والمعرفة، وعهد الاستخلاف والمسؤولية. وهاتان كرامتان من الله ﷻ تحدث عنهما القرآن باعتبارهما الأمانة التي تميز بها الإنسان على سائر الكائنات أو المخلوقات. وانطلاقاً من المساواة والكرامة، تأتي قيمة الرحمة، وهي صفةٌ ساميةٌ من صفات الله ﷻ تجاه مخلوقاته، وقد أعطاهم نصيباً منها فصارت قيمةً وخُلُقاً في الوقت نفسه؛ وذلك لأنها نظرةٌ ورؤيةٌ من جهة، وتصرفٌ وخُلُقٌ من جهةٍ ثانية فقد قال تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾، وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾، وسمَّى نفسه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وقال متحدثاً عن النبي ورسالته: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾، ثم قال للإنسان في توصيته بوالديه: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾. وبذلك تكتمل الدائرةُ بين الربّ وسائر بني البشر؛ دلالة ذلك كما جاء في الأثر النبوي فإنّ الراحمين يرحمهم الله تعالى؛ بَيْدَ أنّ الرحمة والكرامة معاً تقتضيان العدل، ليس بوصفه سمةً قضائية وحسْب؛ بل وبالتسديد في النظرة والإنصاف فيها وفي الفعل. والعدل بهذا المعنى هو توازُنٌ دقيقٌ يدفع إليه الإيمان والرحمة والإنصاف، فيكون المؤمن عادلاً ومنصفاً في نظرته وفعله ومجتمعه وحاكمه. ثم إنّ هذه القيم كُلها إنما تُمارس تجاه الآخرين، وهذا معنى التعارف الذي يتضمن معنى المفاعلة أو الحِراك باتجاه الآخر المختلف. وبهذا الحراك المستند إلى الكرامة والرحمة يصبح الاختلاف داعية تعارُفٍ وتلاقٍ، وليس داعية تفرقة وانفصام. فالتنوع في القرآن الكريم داعية وحدةٍ وتكامُلٍ، وليس العكس؛ ثم يأتي نداءُ القرآن الدائم لممارسة الخير العامّ، والتحلي بالصبر، وانتظار الأجر من الله.

bookaltafahom 34.indb 9 1/3/12 8:31 AM

وإذا كان النظام القيمي القرآني قد شكّل أو كان الدافع في تشكيل منظومة القيم الاجتماعية في الإسلام ـ والتي صارت أخلاقاً اجتماعية ـ فإنّ التجربة التاريخية تشير مرةً أُخرى إلى ظهور تلك القيم على مستوى الثقافة والجدل الكلامي. فقد ركّزت اتجاهاتٌ كلاميةٌ على قيمة العدل؛ بينما ركّزت اتجاهاتُ أخرى على قيمة العناية والرحمة. وبذا فقد بدا أحياناً بسبب النقاش والجدال الحادّ أن هاتين القيمتين متقاطعتان؛ لكنهما ما لبثتا أن تلاقتا من جديد لدى الفقهاء والأصوليين الذين طوَّروا نظرية الضرورات أو المقاصد الشرعية أو حقوق الإنسان: حق النفس، وحق الدين، وحق العقل، وحق النسْل، وحقّ المِلْك، ويضاف إليها كذلك حق الحرية، ولو تأملنا هذه الخُماسية السداسية لوجدنا أنها تصل المساواة بالكرامة وبالعدل والرحمة، وبذا؛ فالذي يبقى من مقتضيات المنظومة القيمية القرآنية أمران اثنان: ما طالبنا به الله ﷻ من الصبر، وما وعَدنا به ـ نحن المحتسبين ـ من حظٍ عظيم. إنما ما معنى طلب الصبر في هذا السياق؟ إن الدعوة إلى الله التي تتحدث عنها الآية تقتضي أمرين: الإيمان ومنظومة القيم من جهة، والصبر على البلاء وحين البأس من جهةٍ ثانية. ذلك أنّ في تَحَمُّل الدعوة وتبليغها مشقة كبرى وبالغة، وقد يصرف ذلك غير ذوي العزيمة عن المتابعة دون أن يعني ذلك تشكُّكاً في الدين، بل في جدوى الدعوة لهؤلاء القوم. والقرآن يطلب من أهل الدعوة أن يصبُّروا على الصبر وعدم اليأس وعلى المتابعة. ثم إن الدعوة قد لا تحصل على استجابة؛ بل قد يكون أيضاً من ورائها اضطهادٌ بسبب الثبات عند المبدأ. وهكذا يكون الصبر هنا ثباتاً على المبادئ، كما يكون تحمُّلاً لعبء دعوة الآخرين وإن لم يستجيبوا. فالتوفيق في الدعوة

bookaltafahom 34.indb 10 1/3/12 8:31 AM

يكــون نتيجة الصبر للجهتيــن: لجهة المبادرة إلــى دعوة الآخرين، ولجهة تحمُّل التبعة والصمود في الدعوة وعليها.

إذا كان المؤمن صبــوراً إذن فإنه يفوز، ثم إنــه يكون صاحب حظ عظيم، والحــظُّ العظيمُ هذا يكــون في الدنيــا والآخرة. ففي الدنيا تفوزُ الدعوة، وفي الآخرة هناك الأجر، والذي بمقتضاه يسعد المؤمن؛ لأنه أدى واجبه وصبر عليه فاكتملت لديه المنظومة القيمية الإســلامية حينما حقّــق إيمانه بالعمــل الصالح، واســتخدم العمل الصالح لخير المسلمين وللإسلام والعالم.

bookaltafahom 34.indb 11 1/3/12 8:31 AM